العرب
السبت 2020/04/18
السنة 42 العدد 11681

# مقام الصوفيّة في الحرب السوريّة

مرح البقاعي
كاتبة سورية أميركية

تكاد تناقضات الحرب على سوريا في سنواتها التسع العجاف ترخي ثوبا من ضباب على البراءة الشعبية التي رسمت الملامح الأولى لثورة اجتماعية وسياسية، عادلة ومسالمة، خرجت بالهتاف والورود في مدن غوطة دمشق، قبل أن تتحوّل إلى اقتتال مجنون وعبثي تديره وتموّله دول وجماعات.

الصورة الحقيقية لظروف مقتل الطفل حمزة الخطيب تحت التعذيب على يد الأمن السوري، وهي الشرارة التي أشعلت بواكير المظاهرات السلمية في مدينة درعا ومحيطها، صفحة لن تزول من "التأريخ" الذي ترسمه الذاكرة الشعبية الخالصة من الشوائب؛ لكن من يسجّل "التاريخ" حيث طغت قوى الاستبداد والتبعية، ويعرضه شريطا دراميا، هو أمر آخر. فالمصطلحان شبه متطابقين كتابة (التأريخ والتاريخ)، إلا أنهما يفترقان حال توثيق الحقائق وتوصيفها بين قاتل ومقتول وجان ومجنيّ عليه ومنتصر ومهزوم.

خلال فترة إقامتي الجبرية بعيدا عن الحياة المؤجّلة خلف جدران المنزل في زمن كورونا السقيم، اخترت أن أستخدم بعضا من الوقت المتطاول كشبح في مشاهدة أبرز عروض الدراما السورية الأخيرة. لفتني مسلسل "ترجمان الأشواق" لأن اسمه حمل عنوان أحد مؤلفات الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي، ذاك الأندلسي الجليل الذي اختار أن تنتهي حياته في مدينة دمشق، ليرقد في القلب من حيّ المهاجرين الدمشقي حيث بيت عائلتي الذي نشأت فيه.

مقام الفيلسوف الفريد و"الشيخ الأكبر" السابق لزمنه، ابن العربي، كان قِبلة أمي أيام الجمعة والأعياد؛ أما ذاكرتي الطفلة، فما زالت تحملني إلى مرقده العظيم كلما شبّت في نفسي حرائق النوستالجيا وأردتُ أن أنفلت من عقال المكان في واشنطن، لتتحرّك، وأتحرّك معها بين عرائش الليلك في باحة المقام، أدور حول بحرته الدافقة تسابيح وماء ورد، وأضيع مع غيمات بخور فضائه الصوفي المنعتق عن شرطيّ الزمان والمكان.

قرّرتُ مشاهدة حلقاته الثلاثين جرعة واحدة في محاولة لأضع يدي على بعض من المشهد البصري من وجهة نظر أهل الدراما الشامية الذين ما زالوا قادرين على التحرّك في المساحة الأمنية الضيقة في سوريا، ولأرصد ما اجتهدوا فيه لتوثيق حشرجات دوران حجر الرحى الذي ما انفكّ يطحن السوريين كافة، وبلا استثناء، لكن بدرجات وصور مختلفة، سواء على أرضهم الأم، أو على أرض الآخرين في منافيهم القصيّة.

لم تدهشني التناقضات التي ساقها النص، فهي فرع من التناقض الأصل الذي أصاب الحالة السورية في المزالق التي اندفعت إليها خلال سنوات الدمار الشامل؛ فمن مشهد لمقام ابن العربي في قلب دمشق وقد تحوّل إلى ملتقى سري لأمراء الحرب من الأطراف المتنازعة يديره وسيط "مصالحات" هو طبيب صوفي حاليا، وشيوعي أسبق، مرورا بمشهد رجل الأمن الذي بدا شخصا طيّبا مطواعا أهدافه البشرية متاحة لكنها تتحرك بأمن وسلام دون أن يتعرّض لها بأي أذى أو حتى تعطيل لحركتها، تكرج سبحة حلقات الرواية؛ أما حوادث الخطف والتدمير والاغتيال فتديرها حكما "المعارضة" التي هي مسلحة بالمطلق، وتنقسم حسب كاتب النص بين إسلامي متطرف أو عسكري منشق، لا ثالث لهما.

الطرف الثالث في المعادلة السورية صاحب الحرية – العقيدة والكلمة – الرصاصة، عرّاب الموقف السياسي المستقل الداعي للتغيير واستعادة سوريا إلى دورة العصر، ابن ذاك الخروج الشعبي السلمي الكبير في العام الأول من الثورة قبل أن ينحرف المشهد إلى فوضى اقتتال دموي تختلط فيه الهويات والغرائز، فهو مغيّب.

والمقتلة السورية يختزلها مشهد بانورامي متكرر للدمار الذي أصاب المدينة (على أيدي العملاء من اليسار السياسي المتهالك، والعسكر المنشق، وأمراء الحرب من المتأسلمين) كما يحلو لضابط المخابرات "الوطني" أن يحدّد هوية أهدافه الأمنية ضمن السياق الدرامي.

قد تكون العودة إلى الحالة الصوفية للثورة في براءتها الأولى ورؤاها الطموحة متعثّرة لأسباب عديدة من أهمها ما ذكره رياض الترك، الشيوعي المخضرم، في تصريح نادر له لتلفزيون "بي.بي.سي" البريطاني، وفي نقده لأول جسم سياسي معارض تأسّس خارج سوريا بهدف تحقيق أهداف الثورة في التغيير الديمقراطي المنشود، قال "المشكلة في المجلس الوطني السوري الذي تشكّل إثر اندلاع الثورة وقد كنا واحدا من كياناته السبعة المؤسسة، أن جماعة الإخوان المسلمين الشريكة في المجلس، والتي يفترض أن تكون جزءا من حركة الشارع بمعناها الواسع، حاولت تسليط الضوء على الجماعة أكثر من الحركة نفسها". وأردف "وجدنا أن الإخوان لم يلتزموا بالأهداف الشعبية والديمقراطية للثورة بل رجحوا كفة توجههم الديني، وذهبوا إلى العنف".

أما النخب السورية من العلمانيين والشخصيات التنويرية الليبرالية التي انتظمت ضمن المؤسسات السياسية السورية، أو المستقلة التي آثرت العمل خارج أي تنظيم معارض، فلم تتمتع بأداء أفضل من شركائها في التغيير الديمقراطي من الإسلاميين.

المعضلة الأساس التي وقع فيها التمثيل السياسي السوري المعارض كانت في فقدان الثقة بين أطرافه بسبب غياب أدنى درجات الشفافية والمتابعة لجهة الأداء البيني الداخلي أو في أشكال التواصل مع الأطراف الخارجية، ناهيك عن حال التشتت في الرؤى والتوجّه والمنافع السياسية التي لم تكن في غالبيتها لتصبّ في خانة المصلحة الوطنية العامة، بل اختزلت في أحسن الحالات ضمن مآرب خاصة وتنافسية.

فصل المقال يكمن في ذاك الاستحقاق الذي أصبح خلف الأبواب في دمشق. فالاستحقاق الانتخابي الرئاسي ليس خيارا يمكن المناورة به، بل هو فرض عين دستوري سوري، وحاجة دولية غدت ملحّة لحلفاء الأسد قبل مناوئيه. فروسيا المتعثرة اقتصاديا إثر انهيار أسعار النفط لم تعد قادرة على تحمّل الأعباء البشرية والمالية لعملياتها العسكرية، وإيران، المحاصرة ومهدودة الاقتصاد، لها أولوياتها في إنقاذ ما يمكن إنقاذه داخل حدودها هذه المرة، وقانون سيزر الأميركي سيدخل حيز التنفيذ الفعلي قريبا ليطبق القبضة على عنق كل من تلطّخت يداه بدم الشعب السوري، وكل من دعم أو شارك في حملات العنف ضد المدنيين. أما "أنا"، تلك الصبية الجميلة المخطوفة في دراما المشهد، ابنة جيل سوري كامل مخطوف أيضا وينتظر بشغف مستقبلا آخر لا يشبه ماضيه، فستخرج من نفق الحرب إلى مساحة الحرية راجعة إلى بيتها السوري ولو أمسى كومة من حجار.

# ترويض ترامب أم فضائح المنظمات الدولية

فاروق يوسف
كاتب عراقي

علق الرئيس الأميركي دونالد ترامب مساهمة الولايات المتحدة في تمويل منظمة الصحة العالمية التي تبلغ 450 مليون دولار. قامت الدنيا ضد ذلك القرار واعتبره الكثيرون قرارا أحمق.

ترامب غاضب لأنه يعتقد أن المنظمة لم تقم بواجبها بطريقة مهنية وخضعت في تقديراتها للصين لأسباب مجهولة مما ممكّن الفايروس من الانتشار في العالم والفتك بالآلاف من البشر.

لو عدنا إلى تسلسل الأحداث يبدو ترامب محقا في غضبه. فمثلما خانت الصين الحقيقة فإن منظمة الصحة العالمية تأخّرت في الإعلان عن الخطر الذي يمثله الفايروس وتداعياته وكانت متساهلة في الدعوة إلى الحظر والإغلاق والتباعد الاجتماعي.

فهل كانت المنظمة مخلصة في أدائها المهني؟

يمكن النظر إلى سلوك المنظمة من جهة كونه يمثل تصرفا حذرا مخافة أن يدب الذعر في العالم غير أن ذلك السلوك لم يكن حكيما بالمقاسات العلمية.

كانت الصين تفكر في اقتصادها الذي يمكن أن يتضرر في ما لو أنها أعلنت أنها صارت مصدرا لوباء عالمي وهو ما يضع منظمة الصحة الدولية في زاوية حرجة. فهي لا تملك مصلحة في إخفاء المعلومات.

أعتقد أن موقف ترامب كان ضروريا من أجل دفع تلك المنظمة الدولية إلى موقع المساءلة. فما الذي دعا تلك المنظمة إلى تأجيل إعلان حالة الطوارئ العالمية؟

**موقف ترامب كان ضروريا من أجل دفع تلك المنظمة الدولية إلى موقع المساءلة. فما الذي دعا تلك المنظمة إلى تأجيل إعلان حالة الطوارئ العالمية**

أرجو أن لا يلهينا التفكير السياسي عن رؤية الحقيقة. ليست المنظمة شيوعية ولا تدفع لها الصين إلا عُشر ما تدفعه الولايات المتحدة.

المشكلة تكمن في آليات عمل المنظمات الدولية ومنها منظمة الصحة الدولية. وهي آليات بيروقراطية بطيئة ومترددة ولا تستجيب لوقع الأحداث.

لا يمكنني القول إن ترامب عمل ما هو صائب في ظل الهبة الدولية للدفاع عن المنظمة غير أنه من المؤكد أن منظمة وسواها من المنظمات الدولية ينبغي أن تتعرض للمساءلة القانونية بكل شفافية.

وكما هو معروف فإن تلك المنظمات مثقلة بموظفيها الذي يستنزفون جزءا لا يستهان به من الأموال المخصصة للنفع العام، كما أن الامتيازات التي يتمتع بها أولئك الموظفون هي من النوع الاستثنائي غير الضروري.

فمنظمات الإغاثة على سبيل المثال تستهلك الجزء الأكبر من الأموال المخصصة للإغاثة في مجالات تشغيلية لها علاقة بتنظيمها الإداري المعقد والمتشعب والثقيل. لذلك هناك فارق كبير بين حجم الأموال الحقيقية المخصصة للإغاثة والأموال التي تنفق من أجل الإغاثة على أرض الواقع.

كان الأولى بالدول التي اعترضت على إجراءات ترامب العقابية أن تنصت إلى ناقوس الخطر الذي علقه ترامب في رقبة المنظمة.

هناك خطأ في توقيت القرار العقابي الذي اتخذه ترامب في ظل الأزمة الكارثية التي يمثلها انتشار وباء كورونا. ذلك صحيح، غير أن ذلك الخطأ ينبغي أن لا يكون مسوغا لعدم الالتفات إلى حقيقة الأسباب التي دعت ترامب إلى اتخاذ قراره الذي اعتبر خاطئا.

فالصين عتّمت على انتشار الوباء وهو ما لم تدنه المنظمة الدولية، بل أن موقف المنظمة كان متطابقا مع الموقف الصيني وهو ما يثير الشبهات.

ذلك الدرس الذي لم يكن في الإمكان ترويض ترامب في الاستفاضة بردود أفعاله الغاضبة بسببه سيكون علامة فارقة في تاريخ العلاقة بين الدول والمنظمات الدولية التي تهدر الكثير من الأموال في قضايا جانبية بعيدة كل البعد عن المهمات الإنسانية الملقاة على عاتقها.

سيعيق الانسحاب الأميركي من المساهمة في تمويل منظمة الصحة العالمية عملها في هذا الوقت العصيب، غير أن الولايات المتحدة قادرة على تقديم مساعدات طبية مباشرة للدول الفقيرة الأكثر تضررا بالوباء، من غير أن تحتاج إلى وسيط.

ذلك ما وعد ترامب بالقيام به. ولكن ذلك الإجراء لن يحل المشكلة. فالمنظمات الدولية ومنها منظمة الصحة العالمية ينبغي أن يُعاد النظر في آليات عملها ووضعها التنظيمي ومتاهاتها في إنفاق المال العام بما يشبه الهدر المجاني.

# كورونا ينقذ النظام الأحادي في الجزائر

حميد زناز
كاتب جزائري

في الوقت الذي نزل فيه فايروس كورونا كالصاعقة على كل بلدان العالم، يبدو أن النظام في الجزائر استقبله كهدية نزلت عليه من السماء، إذ تبيّن كل الدلائل أنه وجد فيه فرصة ذهبية يستغلها للقضاء على ثورة الابتسامة. فهل تكون ضحية وباء كورونا تلك الثورة التي علق عليها معظم الجزائريين آمالا كبارا في تغيير النظام والشروع في بناء جزائر أخرى جديدة وإحداث القطيعة مع طريقة التسيير والحكم المستبد منذ الاستقلال.

هل يعقل أن يستغل نظام كارثة صحية للانقضاض على خصومه السياسيين مثلما يحدث في الجزائر؟ كيف نفسّر ذلك التضييق غير المبرر على حرية التعبير في وقت كان يجب أن تتضافر فيه كل الجهود من أجل مكافحة الوباء وإيصال المعلومة الصحيحة للمواطنين وإقناعهم باحترام الحجر الصحي ونشر جو من الهدنة والطمأنينة عبر وسائل إعلام ذات مصداقية لا منابر دعائية منبطحة كما هو حاصل الآن والتي لا يلتفت لما تقول أحد.

من خلال تصرفاته نلاحظ أن النظام يصارع الزمن خوفا من أن ينتهي الوباء ويعود الحراك كما كان عليه وربما بأكثر قوة وخاصة بعد الفشل الذي أظهره هذا النظام في التصدي للوباء.. وفي مواصلته لمطاردة شباب الحراك والزج بهم في السجون في الوقت الذي تطلق حكومات كثيرة عبر العالم سراح المساجين تجنبا لإصابتهم بالفايروس.

وفي انتهاك صارخ للمادة 50 من الدستور الجزائري التي تنصّ أن "حرية الصحافة المكتوبة والسمعية البصرية وعلى الشبكات الإعلامية مضمونة ولا تقيد بأي شكل من أشكال الرقابة القبلية"، تفرض السلطة الرقابة على الموقعين الإخباريين مغرب إيمرجنت وراديو أم أنفو. ولم يجد وزير الإعلام عمار بلحيمر ما يبرر به هذا الحجب سوى إخراج تهمة مستهلكة هي اعتماد الموقعين على تمويل أجنبي. وقد دحض ناشرهما ادعاءاته في بيان مفصل.

ويظهر ضعف الحجة الحكومية في تجنب وزير الاتصال المرور بالعدالة. وهو ما ينوي اللجوء إليه مدير الموقعين المتضررين الصحافي والمناضل الديمقراطي قاضي إحسان من خلال رفع دعوى قضائية ضد وزير الاتصال.

ولئن كان الجميع يعرف أن هذا الوزير الصحافي مجرد موظف ينفذ الأوامر الآتية من السلطة الفعلية المستترة، فإنه لم يتردد في تهديد الصحافي إحسان القاضي بالسجن وإلحاقه بزميله خالد درارني وذلك في خرق واضح للقانون الخاص الذي يمنع منعا باتا سجن الصحافيين بسبب كتاباتهم.

**هل يعقل أن يستغل نظام كارثة صحية للانقضاض على خصومه مثلما يحدث في الجزائر حيث التضييق على الحريات في وقت يستدعي تظافر الجهود**

وما يثبت عزم النظام على انتهاج الأحادية الإعلامية والفكرية والسياسية هو تنصيب ذلك الرجل الآتي من الماضي محند أوسعيد بلعيد كوزير مستشار للاتصال، وناطقا رسميا لرئاسة الجمهورية، والذي أصبحت خرجاته الإعلامية مضحكة لا علاقة لها بعالم اليوم، كان آخرها قوله إن الحراك هو سبب انتشار كوفيد – 19 جراء خروج الجزائريين في مظاهرات الجمعة والثلاثاء!

من يتابع القنوات الجزائرية العمومية أو الخاصة على حد سواء يخيل إليه أن كل الجزائريين يسبحون بحمد النظام ولا حديث عن محاكمات الناشطين والزج بهم في السجون.. علاوة على مئات المواقع الإلكترونية والحسابات في مواقع التواصل الاجتماعي التي نذرها النظام لتشويه الحراك وخصومه عامة، فمعظم القنوات والصحف والإذاعات انضمت إلى أوركسترا الأحادية لأنها مخيرة بين أمرين: إما الانصياع أو السقوط في الإفلاس بالحرمان من مداخيل الإعلان والغلق المباشر لأن النظام سمح لأغلبها بالبث دون أن يمنح لها الصفة القانونية كقنوات جزائرية بل تركها مجرد مكاتب لقنوات أجنبية مسجلة بالخارج ليبتزها وقت الحاجة وقد أهانها إهانة كبيرة حينما منعها من تغطية الحراك الذي غطته كل قنوات العالم. ولم يتوقف الأمر عند الأحادية السياسية فحسب بل هناك تشجيع للقنوات من أجل نشر الشعبوية الدينية ومحاربة الرأي العقلاني المخالف.